SIBAWAYH Arabic Language and Education Vol.5 No.1 2024
eISSN 2716-5515 (36-48)

الزمان في ديوان (امرؤ القيس): قراءة موضوعية

Time in the Diwan of Imru' al-Qais: A Thematic Analysis

Mariam Abdulnabi Abdulmajeed*
Department of Basrah and Arab Gulf Studies، University of Basrah، Iraq
*Corresponding Author: mariam.alnajjar@uobasrah.edu.iq

To Cite this Article (APA) : Abdulnabi Abdulmajeed, M. (2024). الزمان في ديوان (امرؤ القيس): قراءة موضوعية: Time in the Diwan of Imru' al-Qais: A Thematic Analysis. *SIBAWAYH Arabic Language and Education, 5*(1), 36–48. https://doi.org/10.37134/sibawayh.vol5.1.4.2024

To link to this article: https://doi.org/10.37134/sibawayh.vol5.1.4.2024

الملخص

جاء الزمان في شعر امرؤ القيس عبر مدى خاص للتعريف بهواجس يخضع الشاعر فيها لجبروته، حيث يتمثّل الصراع الذي يحتويه في صلاته مع الكون والآخرين، وكان النص يؤطّر رؤية الشاعر للصلات المختلفة في البيئة الجاهلية وما تضمه من أفعال ومفاهيم، حيث يرسم عبر استعماله للزمان وتداعياته ما تتأطر به هذه العلاقات في سيرورته التي تشتمل على تجارب وآثار، وجدنا مظاهرها وتجلياتها في ديوانه الذي يصف رؤى الشاعر حينما تتحرك مع حركة الزمن، وتُشكّل فيه تلاحمه أو تنافره مع أبعاد وردت تمظهراتها في شعره الذي تبدى سجلا لعاطفته، وفكره.

الكلمات المفتاحية: امرؤ القيس، ديوان امرؤ القيس، المعلقات الجاهلية

Abstract

The passage discusses the concept of time in the poetry of Imru' al-Qais، highlighting how the poet uses time as a medium to express his anxieties and confront the forces he feels subjected to. The text frames the poet's vision of various relationships within the pre-Islamic environment، capturing the actions and concepts of that time. Through his use of time and its implications، Imru' al-Qais portrays the nature of these relationships، which encompass experiences and their impacts. The manifestations of these ideas are found in his poetry، where his reflections on time shape his emotional and intellectual responses، revealing either harmony or conflict with the dimensions that appear in his work، which serves as a record of his emotions and thoughts.

Keywords: Imru' al-Qais، Diwan of Imru' al-Qais، Pre-Islamic Mu'allaqat

المقدمة

ورد الزمان في (ديوان امرؤ القيس) عبر فضاء يتبدى في مداه التعريف بهواجس يخضع الشاعر فيها لسطوته، حيث يتمثّل الصراع الذي يكتنفه في علاقته مع الكون والآخر، وكان النص بُعدا يؤطّر رؤيته للعلاقات المفتوحة في البيئة الجاهلية وما تنطوي عليه من أفعال، حيث يأخذ عبر إيراد الزمان وتداعياته برسم أُطر هذه العلاقات عبر سيرورته التي تشتمل على مواقف وآثار، وجدنا تجلياتها في الديوان الذي تتوصف فيه رؤى الشاعر حينما تتحرك مع حركة الزمن، وتُشكّل فيه تلاحمه أو تنافره مع أبعاد ولجت تمظهراتها في ديوانه الذي تبدى سجلا لملامح عاطفته، وفكره، يمارس فيه إسقاط معطياتهما عبر علامات تنضّدت في مدى الزمان، ووجدنا التزامه بمحاور تكشف عن دواخله وتدلل على وضعه الخاص وتوصيفه حينما أخذت مساراته في الواقع اتجاهات تمخضت عن عبء كبير، يتلاحم مع عواطف تتوغل في فضاء نصه وتشفّ عن سمات الشاعر النفسية والفكرية، وكان الزمان مساراً يفتح على تفاعله مع أحداث تستبطن ملامح شخصيته وتكشف عن نهجه في التعامل مع الآخر، عبر دلالات أخذت مديات الزمان فيها مساحة كبرى يرصد من خلالها مسميات وأبعاد تنطوي على البيئة الجاهلية الشاسعة وانتماءاتها، مع القسوة التي تكتنفها لترفد الفرد الجاهلي بمعطيات يجترّ فيها آلامه وآماله ودهشته وعجزه، فكان النص تصويرا لهذه المعطيات وتصريحا عن علامات يتماهى فيها الزمان مع المكان لإنتاج أنموذج يصوّر ذاته التي تبدى النص مكمنا لها، وإطارا يستند إليه للبوح عن سماتها في حالة الحب والحزن والأمل واليأس والمتمنى، حيث يتمركز الزمن كبؤرة تضمّ هذه المحاور عبر الآتي:

اليوم

يأخذ اليوم سمة مميزة في شعر امرئ القيس كونه أكثر عناصر الزمان تردّدا في ديوانه، ويضعه الشاعر في بُعد يقترن بهواجس يعلنها للتعبير عن وجدانه كما تكتنف مداه مواقف أخذت منحنى خاصا في ذاكرته تبدى أنموذجا يتمثّل إعادة إنتاجها كمعطى يشفّ عن ذاته، التي تتلاحم مع هذه المواقف المعلنة وطاقتها الكامنة المتمركزة في مدى الزمان، حيث يكون اليوم تموضعا لها عبر فضاء النص وتداعيا يغوص في كيانه في أكثر من بُعد، يستشفّ ديمومتها شعرا عبر تمظهرها النصي حيث يبدو اليوم الإطار الذي يفتح فيه قلبه للتصريح بتجليات هذه المواقف ومتتالياتها.

ورد القول باليوم في المعلقة خمس مرات بقوله:

ألا ربَّ يومٍ لكَ منهُنَّ صالـــــــــحٍ ولا ســـــــــيما يـــومٍ بدارةَ جُلْجُـــــــلِ

ويومَ عقرتُ للعذارى مطيَّتـــــي ، فيا عجبـــاً من كُـــورها المُتَحَمَّـــــلِ
فظلَّ العذارى يرتَمينَ بلحمِهـــــــا وشحمٍ كهُدّاب الدمقْـــــــس المُفتَّـــلِ
ويوم دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنيـــــزةٍ فقالتْ : لكَ الويلاتُ إنّكَ مُرْجِلـــي
تقولُ ، وقد مالَ الغبيطُ بنا معـــــاً عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزلِ
فقلتُ لها : سيري ، وأرخي زمامَهُ ولا تُبعديني عن جناكِ المُعـــــــلَّلِ
فمثْلُكِ حبلى قد طرقتُ ومرضـــــــع فألهيتُها عن ذي تمائـــمَ مُحـــــــولِ
إذا ما بكى من خلفها انصرفتْ له بشِقٍّ ، وتحتي شِقّها لم يُحَـــــــوَّلِ

ويوماً على ظهر الكثيبِ تعـــذّرتْ عليَّ وآلـــــــتْ حلفـــــةً لـــــم تَحَلـَّلِ
أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلّلِ وإن كنتِ قد أزمعتِ قتلي فاجمُلي

يأتي ذكر اليوم لاستعادة ذكرياته الأثيرة لديه في زمن خاص بدارة جلجل، ويوم عقر ناقته للعذارى، ويوم دخل خدر عنيزة، ويوم على ظهر الكثيب، حيث يضمّ اليوم كزمن مواقفا تتصل بعلاقته بالمرأة معلنا الواقع الحيّ للشاعر في صلته بها، (قيل لامرئ القيس بن حجر: ما أطيب عيش الدنيا؟ قال: بيضاء رعبوبة، بالطيب مشبوبة، بالشحم مكروبة)، لقد أخذت المرأة جانبا مهما من ذاته وجدنا نصوصه تجهر به وبما يكتنف كيانه معها بأسلوب يشفّ عن حياة لاهية قبل مقتل أبيه وضياع ملكه، فهذه الأيام التي ذكرها في المعلقة تتصل كلها بعلاقته مع نساء أخذ القول بها اتجاها ينطوي على سرعة بالحركة، ووجدنا اليوم متنقلاً بالقول به مع أكثر من امرأة ليحيل إلى شخصية الشاعر وبروز تلاحمه معها، حيث تشكّل موضوعا يتّحد ويشخّص منحنى مميز في وجدانه ووجدان شعره ، فالشاعر يرى المرأة وتجربته معها ملمحا أصيلا للتكامل النفسي الذي ينشده في علاقته بها، معبرا عن وصفها نواة للحياة الهانئة ومحورا لها.ويأخذ اليوم في قصيدة (ذكرى حبيب) الإحالة إلى بؤس القلب بقوله :

يابؤسَ للقلب بعد اليوم ما آبهْ ذكرى حبيب ببعض الأرض قد رابهْ
قالت سليمى: أراكَ اليومَ مكتئباً والرأس بعـدي الشيبَ قد عابـــــــــــهْ
وحارَ بعد سواد الرأس جُمّتَـــــــهُ كمِعْقَب الرَّيط إذ نشّرتَ هُدَّابـــــــــــهْ

الإحالة إلى بؤس القلب يضمّ حدا مفتوحا على ذكرى حبيب مفارق، يأخذ النص هذا المدى معلنا اشتماله على هوّة عميقة تشدّه فيكون اليوم علامة لذكرى ما انفكّ يستعيدها ليؤكد الحضور الطاغي للمرأة في ذاته، هذه العلامة تغلق على حاجة عالية لديه كانت هدفا يتمّ كسره في الشطر الثاني من حياته بعد مقتل أبيه حيث تتحول علاقته بالمرأة في الغلب إلى ذكريات فقط تمثل تجربته وأثرها الباقي في جدرانها، حيث يستند إلى ملامح متفردة تكتنز معطياتها التي تتسع منفتحة نحو الماضي وتجلياته، الذي باتت سماته متمركزة في ذاكرة شعره الذي يكشف ملامحه المهيمنة والقارّة عند الإحالة إلى صلته بالمرأة، ويروى أنه قال هذه الأبيات عند وفاته:

ألا أبلغْ بني حُجْر بن عَمرو ؛ وأبلغْ ذلك الحيّ الحديـــــــــــدا
بأني قـــــد هلكتُ بأرض قـــــــومٍ سحيقاً من دياركمُ بعيـــــــــــدا
ولو أني هلكتُ بأرض قومي ، لقلتُ الموتُ حقٌّ ، لاخلودا
أُعالجُ مُلْكَ قيصرَ كلَّ يـــــــومٍ ، وأجدرْ بالمنيةِ أن تـقـــــــــــودا
بأرض الشأم لا نسبٌ قريـــبٌ ، ولا شافٍ فيُسنِدَ أو يعـــــــــــودا

يأتي القول باليوم في هذا النص في معرض رثائه لنفسه عندما أيقن بالموت الذي كان يتوقعه في كل يوم، حيث يجهر بما يعانيه من انسلاله إليه، ويكتسب النص في القول بالزمان متعاضدا مع المكان عرض معطيات الألم والحزن الماثلة في زمانه الآني بتصوير هواجس

الوجع ومستوى فيوضاته الآتية، وتعالقها بمكامن ذاته حيث تأخذ في فضاء النص مادة يصرح فيها عن تموضعها في حواره مع بني حجر بن عمرو وبخصوصية تتمخض عن بعد يفتض هذا المدى من الزمن، الذي يحتويه عند قوله النص وجدله بما يكتنف أناه الآن مخترقاً ذاته لتصوير ما يعتريه من وعي متراصّ مع توقعه الموت، بصيغة تُفتح على دواخله المنتمية إلى معطى يفضي إلى الزمان وسيرورته، (والشعر الجاهلي لم يسم إلى الذروة الفنية العالية التي بلغها إلاّ لكونه تنفيسا صادقا ملتهبا وتصويرا مخلصا وفيا لبيئة الجاهليين وحياتهم ونفسياتهم بكل ما كان فيها من محاسن ومساوئ وكل ما حددها من حدود مادية وفكرية واجتماعية). في قصيدة (ليال بذات الطلح) يبدو القول باليوم متعاضدا مع الإشارة إلى الملوك والكبر والسُكر مع الشقاء حيث يجهر بأثره العميق الذي يقوده اليه لسانه لحدّ أن يتمنى بأنه لم يقل ما قاله في ذلك اليوم، مع إضماره أصل ذلك القول ومادته ليضفي إشارة تتضمن تجرده باشتغال النص على افتضاض الموقف الخاص الذي يحيل إليه هذا المدخل عبر معطى يعيد الجهر بكوامن الشاعر في زمانه، واسترجاعه لآثار تكمن في ذاكرته وفضاء شعره الذي يلتزم خصائصا تشفّ عن أناه وإطارا يحمل مديات واسعة من فكره وحاجاته، ويتّسم هذا النص بالقول باليوم كمعطى للمُتمنى حيث يُقنن صفة يمارسها وتجرّ إليه من الشقاء ما يحمله وجدانه إلى أن مات، يقول:

لَعَمْرُكَ ما إنْ ضرَّني وسْطَ حِمْيَرٍ وأقوالُها إلاّ المَخِيلَةُ والسُّكُـرْ
وغيرُ الشّقاء المُستبين فليتَنـــــــــي أجَرَّ لساني يومَ ذاكَ مُجِـــــــرْ
لَعَمْرُكَ مـــــا ســـــعْدٌ بخُلّـــــةِ آثِـــمٍ ولا نأنإٍ يومَ الحِفاظِ ولا حَصِرْ

وفي قوله :
تأوبَنـــــي دائي القديـــــمُ فغَلّســـــــا أُحاذرُ أنْ يرتـدَّ دائـــــــــي فأُنكَســـــــا
فيـــا رُبَّ مكـــــروبٍ كررْتُ وراءَهُ وطاعنْتُ عنهُ الخيلَ حتـــى تنفَّســـــا
ويارُبَّ يومٍ قدْ أروحُ مُرَجـَّـــــــــــلاً حبيباً إلى البيضِ الكواعبِ أملســـــا
يرُعْنَ إلى صوتي إذا ما سمعْنَهُ كما ترعوي عِيطٌ إلى صوتِ أعيَسا

يجهر النص بعلاقته بامرأة يأخذ بالقول باليوم وزمانه تكريس صلته بها، والقول هنا لا يلتزم امرأة بعينها إنما يدور إلى علاقته بالنساء اللواتي تنقّل بهواه بينهنّ فهو حبيب إلى البِيض وهنّ يرعن إلى صوته، لكن هذه الذكريات هي دائه القديم (أيام مُلك أبيه) حيث ولّى ذاك الزمان، وهو الآن مريض يعاني نزعات نفسه التي تتساقط رويدا، القول باليوم وزمانه في هذه القصيدة إشارة إلى امتلاء ذاته بذكريات باتت عزيزة يتمثلها بخطاب يشفّ عن ألم كبير، تتظافر العوامل التي تكتنفه على إطالة مداه وبلورة معطياته التي تتمثل الزمان الذي يُفتح على ذاته وملامحها.

ويرد اليوم في قصيدة (تراءت لنا يوما) عند القول بالذكرى ذكرى سلمى التي نأت فيسلّي قلبه بذكريات مرّت له مع امرأة أخرى هي عُنيزة التي رحلت هي الأخرى، حيث

يسترجع ما كان في ذاك المدى ويستفيض لنفي الهمّ الحاضر في علاقته بسلمى، فالمهمّ لديه عُمْر الحب وليس الحبيبة بذاتها، لذلك نراه يستعرض في شعره أكثر من امرأة وقد يكون هذا في نص واحد فتراكم القول بالنساء في نصوص امرئ القيس يحيل إلى سمة أسلوبية تجهر بتعالي حاجته للحب، حيث يرصد بالقول بها أبعادا مرتبطة بهذه الحاجة التي تتمركز عليها وتتشبّع بها، يقول:

أمن ذِكْر سلمى أنْ نأتكَ تنوصُ فتَقصُرُ عنها خطوةً أو تُبـــــوصُ
وكم دونَها من مَهمَهٍ ومفـــــــــازةٍ وكم أرضُ جدبٍ دونها ولصوصُ
تراءتْ لنا يوماً بجنْب عُنيـــــــزةٍ وقـــــــد حان منـــها رحلـــةٌ فقُلُوصُ
بأســـــــــــودَ مُلْتَفِّ الغدائر واردٍ وذي أُشُـــــرٍ تشـــــوفُهُ وتَشُـــــوصُ
منابتُـــــــــــهُ مثلُ السُّدوسِ ولونُهُ كشـــــوكِ السيَّال فهو عذبٌ يفيضّ
فهل تُســـــــلينَ الهمَّ عنكَ شَمِلّةٌ مُدَاخِلَـــــــةً صُـــــمُّ العظام أَصُوصُ

وفي قصيدة (أطلال سلمى) يرد القول باليوم في ردّه على بسباسة التي زعمت بأنه قد شمله الكبر وأنه لا يحسن اللهو منذ الآن لأمثاله حيث يرميها بالكذب، ثم يستعرض ما يمتلكه الآن من اللهو بآنسة كأنها خط تمثال، ثم يستطرد في هذا الاتجاه بعرض لهوه بالنساء الأخريات وما يتمتعن به من جمال باهر، أو يسترجع مواقفا مع أخريات كانت له معهن ذكريات أخرى حيث يؤكد في شعره حاجته للحب الذي يتخذ سمة تتمركز في ذاته تتصف بتعالق حاد مع عمر التجربة، تجربة الحب بذاتها، حيث تدخل في صُلب وجدانه مع اللهو الذي أخذ في ذاته اهتماما عاليا فيقول:

ألا زعمتْ بسْباسَـــــــةُ اليـــومَ أننـــــي كبِرْتُ وأن لايُحسِنُ اللهوَ أمثالـــي
كذبتِ لقد أُصبي على المرء عرسَهُ وأمنَعُ عرسي أن يُزَنّ بها الخالـــي
ويارُبَّ يومٍ قد لهـــــــــوتُ وليلـــــــــــةٍ بآنسةٍ كأنـــــــــــها خطّ تمثـــــــالِ
يُضيءُ الفراشُ وجهها لضجيعِهـــــا كمصباحِ زيتٍ في قناديل ذُبّـــــــــالِ
كأن على لَبّاتها جَمْرَ مُصطَـــــــــلٍ أصابَ غضا جَزْلاً وكُفّ بأجـــــزالِ
وهبتْ لهُ ريحٌ بمُختَلَف الصُّـــــــــوا صباً وشَمالٌ في منازل قُفّـــــــــالِ
ومثلِكِ بيضاء العوارض طفلـــــــةٍ لعوبٍ تُنَسيني ، إذا قُمتُ ، سربالي

ويعود في نفس القصيدة إلى ذكر اليوم الذي يستعيد فيه ذكريات كانت له مع عذارى في يوم دجنٍ قد ولجه، فيستعرض جمالهنّ ثم يذكر انصرافه عنهن، هذا التدفق في الذكريات يشتغل كإسقاط نصي يخترق عالمه الآني وما يكتنفه من مشاكل يستعيد فيها ما ينطوي في ضميره من منغصات تستفزه حيث يعيد اجترار الماضي الهانئ في محور يرتكز على رؤية تستثير دلالة تمركزها في ذاته عند التدفق الصوري المحيل إلى زمانها بصريا، لإبراز مدى

يستند إليه للعودة إلى زمانه بتصوير معطياته التي تكمن فيها أداته النفسية المحيلة إلى متمنيات نفسه ورغباتها، يقول:

وبيت عذارى يوم دجْنٍ ولجْتَهُ يطُفْنَ بجَبّاءِ المرافق مَكْسالِ
سِباط البنان والعرانين والقنـــــــــــــــــــا لِطاف الخُصور في تمامٍ وإكمالِ
نواعمَ يُتبِعْنَ الهوى سبُلَ الـــــــــــــــردى يَقُلْنَ لأهل الحِلْم ضلَّ بتَضـــــلالِ
صرفْتُ الهوى عنهنّ من خشية الردى ولستُ بمَقْليّ الخِلال ولاقـــــــــــــالِ

ويقول :

ألا ياعين ! بكّي لي شَنينـــــــــا وبكّي لي الملوكَ الذاهبينا
مُلُوكاً من بني حُجْرٍ بن عمرو يُساقون العشّيةَ يُقتلونـــــــــا
فلو في يوم معركةٍ أُصيبـــــــوا ولكن في ديار بني مَرينـــا
فلم تُغسلْ جَماجمُهمْ بغُســـــــــلٍ ولكنْ في الدماء مرملينـــــا
تظلُّ الطيرُ عاكفةً عليهـــــــــم وتَنتَزِعُ الحواجب والعيونـــــا

يأتي ذكر اليوم في هذا النص متجاورا مع جزيئات تفصح عن ألم كبير يستعيد من خلاله حدثا يعبر عن نقطة التحول الأساس في حياة الشاعر عندما قُتل أباه، الذي كان سيد قومه، الرثاء الذي يلتزمه يشفّ عن بؤرة أخذت من كيانه الزمان المرفّه الذي كان في أحضانه ليصبح مُتشردا في البلدان طلبا للثأر واسترجاع المُلك الذي لم يستطع إعادته حتى وفاته، وهو هنا يرثي الملوك معتبرا أن كل قومه الذين قُتلوا مع والده ملوكا متعلقا بسموّ يفتضّ حياته في كنفه تلك الحياة الوادعة التي ذهبت بمقتلهم، حيث يثير هذا المكمن الذي ظلّ ندبة في جدار ذاكرته لملامح الحياة التي شملته بأمانها وترفها، (إن الجاهلي كما يتجلى في أشعاره، كان أيضا إنسانا دقيق الإحساس، مُرهف الشعور، عميق التأمل، يطيل التفكير في القضايا التي تعرض له ولغيره ويكثر التوقف عند المشكلات الشعورية بل نجده لا يتأنى على النزوع إلى معضلات هي وجودية في جوهرها).

الليلة والليل

يتجلى القول بالليلة والليل في شعر امرئ القيس عبر مديات تأخذ في زمانهما استرجاع أحداث ووقائع لا زالت آثارها باقية في كيانه، حينما يتمثل في التصريح بهما تجاربا أخذت مناح خاصة في السلم الشعوري والفكري لديه، عبر خطاب يجهر بقلق يُعبر عن حدود حياته التي تتجلى في مشاهد وجدنا الزمن فيها فاعلا أساس ينتخبه الشاعر للتعريف بأناه، وإطارا يشكل فيه ملامحها، فعندما يقول:

لَعمْرُكَ ماقلبي إلى أهله بِحُـــــــرْ ولا مُقْصِرٍ يومـــاً فيأتينـــــي بقُـــــــــرْ
ألا إنما الدهرُ ليالٍ وأعصُـــــــرٌ وليـــــس على شيءٍ قويمٍ بمُستمـــــــــــرْ

لِيالٍ بذات الطلح عند مُحَجَّـــــرٍ أحبُّ إلينا من ليالٍ علـــــى أُقُـــــرْ
أُغادي الصَّبوحَ عند هِرٍّ وفَرتني ولِيداً وهل أفنى شبابي غيرُ هِـــــرْ
إذا ذُقتُ فاها قلتَ طعمُ مُدامَـــةٌ مُعَتَّقَةٌ ممـــــــا تجـــــئُ بـــــه التُّجـــرْ
هما نعجتان من نعاج تَبالَـــــــةٍ لدى جؤذَرين أو كبعضِ دمى هَكِرْ
إذا قامتا تضوَّع المسكُ منهمـــا نسيمَ الصَّبا جاءت بريح القُطُـــــــــرْ

في هذا النص يسترجع زمانا يجمعه مع المرأة فيصرح بأن الزمان ما هو إلاّ ليال وأعصر تتعاقب وليس لشئ فيه استمرار، ثم يعرج لاجترار ليال جمعته مع تلك المرأة وبنفس أسلوبه الأثير هو يذكر امرأة ثم يذكر امرأة أخرى معها حيث يستعيد زمان الحب بذاته وليس زمانه مع امرأة خاصة، هذا الأنموذج يشفّ عن نفسية الشاعر في إطار يتناسب مع حياة لاهية تتمركز على حب الذات، فامرئ القيس يعشق ذاته قبل أن يعشق المرأة ويعشق حبها له قبل أن يعشقها هي بالذات، هذا التراكم في تعداد النساء في شعر امرئ القيس سمة أسلوبية لديه، تتمثّل دلالة حضورها في ذاته، وإدراكا نفسيا ووجدانيا لقيمة الحب الذي يتكثف كبؤرة تتحدد مع وجود المرأة بغض النظر عمن تكون، حيث يتوغل باستحضار النساء اللواتي حضر الحب معهنَّ ليكون علامة تُبرزه كقيمة تجسّد انتماءه لعالمه أولا، وفي قوله:

ألمّا على الربع القديم بعَسْعَسا كاني أُنادي أو أكلمُ أخرســـــا
فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا وجدتُ مقيلاً عندهمْ ومُعَرَّســـا
فلا تُنكروني إنني أنا ذاكُـــــــمُ ليالي حلَّ الحيُّ عندهم فألعسا
فإما تَرَيني لا أُغَمّضُ ساعـــةً من الليل إلاّ أن أكبّ فأنعســـا

القول بالأطلال بهذه القصيدة يحيل لمأزق كبير لدى الشاعر يجهر بتلازم الزمان والمكان في صنع الطراز الذي ينتمي إليه كيانه، بمداخله النفسية التي يرتادها عبر مناطق ولج في فضائها القول بالأطلال مستلهما الإحالة اليها مع الليل ليخرج إلى مدى الكون الذي ينطوي على نسيج حياته، حيث يسرد ما يرتاده بعد هذه المقدمة المتلازمة مع الزمان الماضي الذي ما انفك يتغنى به في كل شعره، ليوقظ من خلاله مكامنه المتعبة بتقلبات الحياة التي مرّ بها، (لقد وضعت هذه الطبيعة الإنسان الجاهلي أمام شعوره بالمفارقة، بين فنائه ومصيره المحقق، وبين خلود الطبيعة، ومن ثم العلاقة بينه وبينها، فكانت تلك العلاقة الجدلية بين الثابت والمتحول دعامة من دعامات تكوين هذا الاتساق)، ويعيد الجهر بالكرب في قصيدة (ليالي الهوى)، فيقول:

لمن طللٌ أبصرتُهُ فشجاني كخطّ زبورٍ في عسيب يمانِ
ديارٌ لهندٍ والرباب وفرْتَنـــى ليـــاليـنـــا بالنَّعْف من بَدَلانِ
لياليَ يدعوني الهوى فأُجيبُـــــــهُ وأعْيُنُ من أهوى إلـــيَّ روانـــــــي
فإن أُمسَ مكروباً فيارُبّ قيْنَـــــةٍ مُنَعَّمَـــــــــــــةٍ أعملْتُهـــا بِـــكِـــرانِ
لها مِزْهَرٌ يعلو الخَميسَ بصوته أجشُّ إذا مـــــا حرَّكتْـــــــــهُ اليدانِ
وإن أُمسِ مكروباً فيارُبَّ بُهمـــــةٍ كشفتُ إذا ما اسودَّ وجهُ الجبانِ

وإن أُمسِ مكروباً فيا رُبَّ غــارةٍ شهدتُ على أقبَّ رخو اللَّبـــــــانِ

يتلازم الكرب مع القول بالليل والليالي مرة أخرى في الطلل الذي يقود الى ذكرياته مع النساء، فتظهر هند والرباب وفرتنى متجاورة مع القول به ومتلاحمة معه، فالقول بالذكريات في هذا النص يتمثل إسقاطا للكرب بالهروب منه إلى الذكريات السعيدة للشاعر، حيث يضمر قلقا حادا يمرّ به وهذا ما يدفعه الى الركون لزمان الليل والليلة، الذي يكتنز هدأة الأنا ووحدته حيث ولوج النفس إلى مساحات تتفتح على استعادة ما مضى، وتكون علامات يشير بها إلى داخله الذي تتضادّ فيه في دائرة وعيه متمنياته التي ولَّت وواقعه الآني بعد أن خسر مُلك أبيه، أما في المعلقة فقد تردد قوله بالليل أكثر من مرة عند قوله:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدولَــهُ عليَّ بأنـــواع الهمـــــــــــــــــوم ليبتلي
فقلتُ له لمّا تمطَّى بصُلْبـــــــــــــه وأردفَ أعجازاً ونـــــــــــاء بكلكَـــــــــلِ
ألا أيها الليل الطويلُ ألا انجلي بصُبْحٍ ، وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ
فيالكَ من ليلٍ كأن نجومـــــــــــــهُ بأمـــــــــــــــراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جّندَلِ

يأتي القول بالليل متلازما ومتلاحما مع الهمّ بقوة في المعلقة وهذا التلازم مفتوح ليس على زمانه فقط إنما الصبح أيضا لا يمتلك غير الهموم التي تفتضّ ذاته في زمانه، مثله مثل الليل تماما لكأن نجوم الليل قد شدَّت بحبال إلى صخور صلدة حيث يستطيل الليل لتزداد همومه وآلامه، وهنا يُصرح الشاعر عن استفحال مدى الألم الذي يتنضد في ذاته بعد أن جفاه الزمان وسرق منه أمانه النفسي بدون رجعة، فنجد التوتر النفسي باديا ومتلازما مع الليل بطوله المفتوح على أوجاع تترابط تداعياتها مع صيغ يعمد فيها إلى تصوير حاضره بتجسيد الأفعال التي تصف الواقع الآني ومعطياته، مقترنا مع فضائه النفسي إلى صور ترصد تراكم همومه وتضخمها.

ويتصل القول بالليل والأيام في قصيدة (ذو الهمّ بليل التمام) مع العبرات، والتهمام، والذكرات؛ حيث يجهر بمديات أصابته ذكرياتها بحزن واسع حيث تقضَّت وتركته الآن في مطاوي القلق والضياع ، تشكل الطلل بفضاء النص يحيل إلى جدب الواقع وعلامة على حركية الزمان الذي حضر في إطار يشي عن الأفول في حياة الشاعر؛ (لأنها تجسد برهة التحول من الماضي الى المستقبل، إذ هي تختزن الماضي كنقيض مباشر للحاضر وكمطابق حميمي للمستقبل المأمول، ولهذا كان الزمن الماضي، بصيغته الصورية والنحوية معا، دائم المثول في المطلع الطللي للقصيدة، ودائم الاتصاف بالانطفاء، أما الحاضر نفسه فلا يمثّل إلاّ اتضاعا مرعبا وممجوجا)، فالذكريات التي يطلّ بها امرؤ القيس على الماضي تبدو في الغالب سعيدة والآن الذي يستجلي هذه الذكريات يبدو قاتما موجعا، فتبدو آثار هذه التجليات على حركية الحالة النفسية التي تشير إلى عقم واقعه الآني، يقول:

غشيتُ ديارَ الحيّ بالبَكَرَاتِ فعارِمَةٍ فبُرْقَـــــــــــــةَ العيَـــــــرَاتِ
فغَوْلٍ فحِلّيتٍ فأكنافِ مُنْعِجٍ إلى عاقلٍ فالجُبّ ذي الأمَرَاتِ
ظَلِلْتُ ، ردائي فوقَ رأسي ، قاعداً أعُدُّ الحصى ماتنقضي عبراتي
أعِنّـــــــــي علـــــــى التهمام والذّكراتِ يَبِتْنَ على ذي الهمّ مُعتكِـــــــراتِ
بليل التمـــــــــــــــامَ أو وُصِلْنَ بمثله مُقايَسَـــــــــــةً أيامُـــهـــــــا نكِـــــــراتِ

في قوله :

تطـــاوَلَ لـــــيلُكَ بالإثمِـــــــدِ ونامَ الخليُّ ، ولـــــــم ترقُـــــــدِ
وباتَ وباتتْ لـــهُ ليلـــــــــةٌ كليلةِ ذي العائِرِ ، الأرمـــــــــدِ
وذلك من نبـــــــــأٍ جاءنـــي وخُبِّرتُـــــــــهُ عن أبي الأســـــودِ
ولو عن نثًا غيرِه جاءني وجُـــرْحُ اللسان كجـــــرْحِ اليـــــدِ
لقُلْتُ ، من القول ، مالا يزا لُ يؤْثَرُ عنّي ، يد المُسْنَدِ

يعيد النص الإطار الذي يضمّ الهمّ والقلق في عالمه ويعيد القول بالعلاقة بينه وبين بني أسد الذين قتلوا أباه وهتكوا ملْكه وشردوه في البلاد، هذا الإطار العام الذي شكَّل انتقالة أساس في حياة الشاعر فضلَّ يعيد الجهر بتجلياته في ديوانه بكثافة، فهو حاضر معه في الليل والنهار ويستحضره في القول الشعري بالإحالة إلى الزمان الماضي عند الذكريات والإحالة إلى الآن بتوصيف ما يعتريه من هواجس وفي المستقبل الذي يتشكل فيه الأمل باستعادة ملْكه الضائع، أحادية المرجع الذي يحيل إليه الهمّ يستند إلى ضياع المُلك حيث يتضمن إطارا للصراع النفسي الذي يتحرك فيه الشاعر، متحدثا عن غائب هو المُلك والأهلون وعن الحاضر وتجلياته، حيث يتشكل التركيب السياقي بالانتقالة بينهما وبين حضور الزمن الآني وما يكتنفه من هواجس وحدود الزمن الماضي وما يحفه من انكسار، وحين يقول:

وإذْ هي تمشي كمشي النزيف يَصرَعُهُ بالكثيـــــــب البُهُـــرْ
بَرَهْرَهَـــــــةٌ رَوْدَةٌ رَخْصَـــــــــــــــةٌ كَخَرْعُوبَةِ البانَـــــةِ المُنفَطِـــــرْ
فَتُورُ القيام قَطِيـــــعُ الكـــــلام تَفْتَرُّ عن ذي غُرُوبٍ خَصِـرْ
كأنّ المُدَامَ وصَـــــوْبَ الغَمَامِ وريحَ الخُزامى ونشْرَ القُطُـــرْ
يُـــعَلُّ بـــــه بـــــرْدُ أنيابِهـــــا إذا طرَّبَ الطائر المُسْتَحِـــرْ
فبِتُّ أُكابِـــــدُ ليلَ التَّمـــــــــامِ والقلْـــبُ مـــن خشيةٍ مُقْشَعِرْ
فلمـــــا دنـــــوتُ تَسدّيْتُـــــــــها فثوباً نـــسيتُ وثوبـــــاً أجُـــــرْ

ولمْ يَرَنـــــا كالـيءٌ كاشـــــــــحٌ ولم يُفْشَ منّا لدى البيت سِرْ

يرد الليل في هذا النص في معرض حديثه عن علاقته بامرأة تجلّت أوصافها وأوصاف الليلة التي قضاها معها في الشطر الأول من حياته اللاهية التي كانت فيها موزعة على اللهو

والنساء، هذا السياق ورد كرؤية تصبّ في الزمان الذي كانت تحتل المرأة فيه مكانا أثيرا لديه فهو لا ينفكّ يواصلها وتواصله ويهنأ معها وتهنأ معه باستفاضة وجدنا ملامحها بادية في ديوانه، فالإخبار عن هذه الليلة وذكرياتها يقدم رؤية تركز على السمة التراكمية لذكرياته وورودها في شعره مع النساء، عبر نمط تكراري يتنوع في عدة نصوص يتم فيه إبراز أثر التجربة لدى الشاعر.

الرحيل ليلاً هو مفتاح القول في قصيدة (حدّث حديث الركب واصدق) حيث يحلّ الفراق ويأخذ أنموذجا للطلل في الحياة الجاهلية التي لا تنفكّ عن مشهد الرحيل وما يرادفه، وقد وصف الشاعر صورة الرحلة وما تحتويه من حركة وما يكتنفها من تداعيات حيث وقف واجماً يتأمل حبيبته وهي تتحرك مبتعدة مع الركب ليلا، ليحتضن هذا الزمان بؤرة للوجع تبدَّت آثارها في المشهد الذي يضمّ جزيئات هذا الموقف، (فلكي يستطيع النص توصيل معناه أو موقفه من محيطه الخارجي، فإنه يلجأ إلى مجموعة من المعايير والمواضعات والاتفاقات التي تكون سابقة عليه، ومعروفة لدى جمهور المتلقين، يستطيع بفضلها أن يخلق وضعية سياقية بينه وبين القارئ)، فاستجمع كل ما كان يقع تحت بصره مع تلك المرأة المفارقة التي أخذت بؤرة القول في سياق يضمّ الركون إلى مشاعر الفقد المتركزة في زمان الرحيل، يقول:

ألا عمْ صباحاً أيّها الرَّبعُ وانطِقِ وحدّث حديث الركبِ إن شئتَ واصدقِ
وحدّثْ بأنْ زالتْ بليلٍ حُمولُهمْ كنَخلٍ من الأعراض غير مُنَبّقِ
جعَلْنَ حَوَايا واقتعدْنَ قعائداً وحفّفنَ من حَوْكِ العراق المنمَّقِ
وفَوقَ الحوايا غِزْلَةٌ وجَآذِرٌ تضمّخنَ من مسْكٍ ذكيّ وزنبَقِ
فأتْبَعتُهُمْ طَرْفي وقد حالَ دُونُهُمْ غَوَارِبُ رملٍ ذي ألاءٍ وشِبرِقِ

أخرى

وردت مفردات الزمان في (ديوان امرؤ القيس) ليصف فيها ما يضمّه زمانها من مواقف وآثار بقيت راسخة في جدران ذاكرته حيث قدمها في نصوص شعره للتعريف بأناه، وتفاعله مع الكون حينما يخضع لمعطيات الزمان التي تركت في كيانه أبعادا لتراكمات احتلت منزلة يجهر فيها عن ملامح هذا التفاعل، وتداعياته، ومتتالياته، بانفتاحها على الكون الكبير حيث كانت إطارا يضمّ تحركاتها التي تتلاحم مع تحرك هواجسه ومعطياتها وتشفّ عن دوال تحيل إلى اسقاطها في الديوان المتمركز على الذات، فحينما يقول:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ وعرفانِ ورسْمٍ عفتْ آياتُه منذ أزمانِ
أتتْ حججٌ بعدي عليها فأصبحتْ كخطّ زبورٍ في مصاحف رُهبانِ
ذكرتُ بها الحيّ الجميعَ فهيَّجَتْ عقابيلَ سُقْمٍ من ضميرٍ وأشجانِ

فسحَّتْ دموعي في الرداءِ كأنـــــها كُلى من شَعيبٍ ذاتُ سَحٍّ وتَهْنانِ

ذكر الزمان بهذا النص يأخذ مساحة تستجلي جزيئاته كلها والدعوة للوقوف فيه دعوة للبكاء والجهر بالحب والعرفان والرسم الذي عفت آثاره منذ أزمان، هذه الأزمان هي التي محت هذه الآثار وأخذت معها ذكرياته الأثيرة، ثم تراكمت الأزمان والسنون لتغدو كخط زبور في مصحف هذا الخط يستجلي بعدها المكاني ويرمز إلى تحولها إلى قول راسخ مكتوب في ذاكرته وفي ذاكرة شعره، فالذي تولى وإن كان قد انقضى وتمحَّت آثاره لم يمح من ذاكرته ووجدانه يفتح عقابيل السقم والشجون ويسيل دموعا تنزف حزنا على الزمان الذي لا يمكن استعادته. ويأتي ذكر الدهر عند قوله :

خليلَيَّ مُرّا بي على أُمّ جُندَبِ نُقَــضَّ لُـــــبانات الفؤاد المُعَـــــذَّبِ
فإنكما إن تنظُرانـــــــي ساعـــــةً من الدهر تنفَعْني لدى أُمّ جُندَبِ
ألم تَرياني كلّما جئتُ طارقـــاً وجدْتُ بها طيباً ، وإن لم تَطَيَّبِ
عقيلةُ أترابٍ لها ، لادميمـــــــــة ولاذاتُ خلْقٍ ، إن تأمّلتَ جأنَـــبِ

ورد الدهر في معرض ذكره لعلاقته مع أُميمة (أم جندب) فيذكر صفاتها العالية وما تمتاز به من ملامح خلْقية وخُلُقية يستحضر بها صورتها المحببة إلى نفسه وجهات يصرح بها عن فضاء صلته معها، خطابه ينطوي على مكامن ذاته نحو هذه المرأة بمستوى يتمثَّل حوّاسه التي أخذت فيها بعدا يحيل إلى الصورة وما يرافقها من أفعال وما يقترب من ذاتها بوعي نفسي يتحدد كموجّه يتواصل به معها شعريا، أما في قوله:

أَبعْدَ الحارثِ، الملِكِ ، بن عَمـرو وبعْدَ الخيرِ حُجْرٍ ، ذي القِبابِ
أُرجِّي ، من صُروف الدَّهْر ، لِيناً ولمْ تغْفُل عن الصُّمِّ الهِضـــــابِ
وأعلـــــــــــــمُ أننـــــــــي ، عما قريبٍ سأنشَبُ في شبا ظُفُرٍ ونـــــــــــابِ
كما لاقى أبي حُجْرٌ ، وجـــــــــدِّي ولا أنسى قتيلاً بالكُـــــــــــــلابِ

جاء ذكر الدهر لاسترجاع زمان والده الذي ينعته بالخير ويصف حاله الآني الذي فقد به الأمل بارتجاع اللين الذي شمله في زمانه وأيام مُلْكه، فصروف الدهر ما تنفك تعبث به وتسلبه الأمان ليصل إلى الإيمان بمطلق انتهاء المنى بعودة ذاك الدهر، وكان الآتي العقيم هو الأكثر حضورا في كيانه في وقت إنشاء النصّ، حيث لم يعد يأمل بشئ بل أنه يتوقع أن المنية عما قريب ستنشب أظفارها في ذاته ليغادر الدنيا آسفا على مُلْك ضائع لم يستطع استعادته، (لقد تأمل امرؤ القيس الحياة تأملا عميقا انتهى به إلى هذا الموقف المأساوي الحادّ، وما أكثر ما انبثقت فكرة الفناء من صميم الحياة التي يتأملها الشاعر الجاهلي أو يقبل عليها)، وقد جاء قوله بالغداة في قصيدة (رمتني بسهم فلم أنتصر) حيث يقول فيها:

تروحُ من الحيّ أم تَبْتَكِـــــــرْ وماذا عليكَ بأن تنتظـــــــــــرْ؟
أمَرْخٌ خِيامُهُمُ أمْ عُشُـــــــــــرْ أم القلبُ في إثرِهِمْ مُنحَـــــــــدِرْ
وفيمَنْ أقامَ من الحيّ هِـــــــرْ أم الظاعنونَ بها في الشُّطُرْ
رمتني بسهمٍ أصابَ الفـــــؤادَ غداةَ الرحيل فلم أنتصـــــــــرْ
فأسبلَ دمعي كفضّ الجُمانِ أو الدرُّ رَقراقُهُ المُنْحَـــــــــــدِرْ

الغداة في النصّ تضمّ يوم فراقه مع امرأة تدعى هرّ التي تكرر ذكرها في أكثر من نص في ديوان الشاعر، يذكر في هذا النص ما حدث في هذه الغداة عند رحيلها عندما وقف ودمعه منسبل، ثم يذكر ما تمتاز به هرّ من سمات خاصة في قوله بالمشي وتشبيهه بمشي النزيف والفتور في القيام ثم قوله بالرائحة التي يعرج بها على ذكر الوردة وريح الخزامى ليلتمس مدى يحيل إلى علامات يحتفظ بها في كيانه لها، فيقدم مقاربة لمستوى إحساسه بها يستشفّ مكوّنا يفضي لذاتها يمتلك اهتماما خاصا من الشاعر يكشف التصوّر الذي يأخذ مرجعيته من شعوره تجاهها كسمة ترصد ملامحها المستقرة بذاكرته.

وورد القول بالغد في قصيدة (حيّ الحمول) بقوله :
حيّ الحُمولَ بجانِبِ العَـــــزْلِ إذ لايُلائِمُ شكْلُـــها شكلـــــي
ماذا يشقّ عليكَ من ظُعُـــــنٍ إلاّ صِباكَ ، وقلّةُ العَقْـــــــلِ
مَنّيتِنا بغَـــــــدٍ ، وبعـــدَ غَـــــدٍ حتى بخَلْتِ ، كأسوإ البُخْلِ
يا رُبَّ غانيةٍ صَرمْتُ حِبالَها ومشيتُ مُتَّئداً على رِسلـــي
وتنوفَةٍ ، جرداءَ ، مُهْلِكَـــــــةٍ جاوزْتُها بنجائِبٍ فُتْـــــــــــلِ
فَيَبِتْنَ يَنْهَسْنَ الجَبُوبَ بهـــــا وأبيتُ مُرتَفِقاً على رَحْـــــلِ
مُتَوَسِّداً عضْباً ، مَضاربُـــــهُ في مَتْنِهِ ، كمَدَبّةِ النَّمْـــــلِ

الغد في النصّ يرتبط بأمنية من المرأة التي كانت توعده بالوصل وتماطله وتبخل به، فيقوده هذا المنحنى إلى التصريح لها بعلائقه الماضية بالنساء قبلها، حين كان هو الذي يماطل ويتحرك نحو إثبات ذاته برغبة الأخرى إليه، فهو يقصد الكشف عن نرجسيته التي تتجلى بصلته مع المرأة وتكثيف حاجتها إليه، (فإن أي نص يخلو من القصد لا يرقى إلى مرتبة الخطاب وبالتالي لا يقوى أن يحافظ على انسجامه الداخلي، أو على منطقه الذاتي، وسيفقد في النتيجة توجهه الإيصالي)، باشتغال النص على التصريح بمعطياتها، وتداعياتها، وتمظهراتها، واستعادة تجلياتها التي يجهر بها عن هذا المحور وتدعيمه نصيا.

المصادر

البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، ط1، القاهرة، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، 2010 .
ديوان امرؤ القيس، اعتنى به وشرحه، عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط5، 2012 م.
الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، د. محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب أحمد رومية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس، 1996 .
ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي، أحمد الخليل، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1 ،1989 .
فلسفة المكان في المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي، د. سعيد محمد الفيومي، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية)، مج 15، ع2، يونية، 2007 .
اللسانيات والدلالة، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط2، 2007، حلب – سورية .
مقالات في الشعر الجاهلي ، يوسف اليوسف، ط3 ، 1983، دار الحقائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر .
من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة – دراسة تحليلية نقدية في النظريات العربية الحديثة، عبدالكريم شرفي، ط1، 2007م، منشورات الإختلاف، الجزائر–العاصمة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت – لبنان.

REFERENCE

Statement and Explanation, Abu Othman Amr bin Bahr Al-Jahiz, edited and explained by: Abdul Salam Haroun, 1st edition, Cairo, Ibn Sina Library for Publishing and Distribution, 2010.

Diwan of Imru' al-Qais, he took care of it and explained it, Abdul Rahman Al-Mustawi, Dar Al-Ma'rifa, Beirut - Lebanon, 5th edition, 2012 AD.

Pre-Islamic poetry is a method for studying and evaluating it, Dr. Muhammad Al-Nawahi, National House for Printing and Publishing, Cairo, D.T.

Our old poetry and new criticism, Dr. Wahab Ahmed Roumieh, World of Knowledge Series, National Council for Culture, Arts and Literature, Kuwait, March 1996.

The phenomenon of anxiety in pre-Islamic poetry, Ahmed Al-Khalil, Talas House for Studies, Translation and Publishing, Damascus, 1st edition, 1989.

The philosophy of place in the pre-Islamic introduction to pre-Islamic poetry, Dr. Saeed Muhammad Al-Fayoumi, Journal of the Islamic University (Islamic Studies Series), Volume 15, No. 2, June, 2007.

Linguistics and Semantics, Dr. Munther Ayashi, Center for Cultural Development, 2nd edition, 2007, Aleppo - Syria.

Essays on pre-Islamic poetry, Youssef Al-Youssef, 3rd edition, 1983, Dar Al-Haqiqat in cooperation with the Office of University Publications in Algeria.

From philosophies of interpretation to theories of reading - a critical analytical study in modern Arab theories, Abdul Karim Sharafi, 1st edition, 2007 AD, Al-Ikhtifa Publications, Algiers - Algiers, Arab House of Science Publishers, Beirut - Lebanon.